الحطيـة

أنت في حلم أم خيال أم ماذا ؟ هل يعقل أن تكون قدماك قد وطئت باريس، هذه المدينة العريقة الشفافة، التي تخلبك بسحرها وجمالها بمجرد وصولك إليها.. وأنت مجرد شاب بائس فقير، كنت تقطن في حي يكتظ بأكواخ الصفيح المتلاصقة، والأزقة الملتوية الضيقة، والنوافذ الصغيرة الواطية، ومسارب المجاري، والقطط الغافية، والكلاب التي لا تكف عن النباح في الليل، والفراغ والسأم، ومشايخ الحي الذين يلعبون الشيزة عند مسجدها الوحيد، من العصر وحتى آذان المغرب، وفتياته اللواتي تكتظ بهن البيوت..

وتتذكر طفولتك، وكيف كنت تقطع سبخة الحطية، مشيا على قدميك في الصيف نهارا، لصيد العصافير بالفخ والنشابة ثم بندقية الرش، في وادي بوحبلة، ومقبرة جدارية، وكيف كنت تطارد

اليرابيع، وكيف كنت تقترب من البحر، وتقوم بتخويض مياه عيون البردي، حتى تفقد أسماك البوري الأكسجين، فتطفو فوق سطح المياه السوداء، فيسهل عليك اصطيادها، وحملها في كيس إلي أمك، حيث تعد لكم وجبة عشاء دسمة، من سمك بوري بالأرز، وكيف كنت تقوم بجمع النحاس وأواني الألمنيوم القديمة، وبيعها للمرغني في وسط المدينة، بعدها تتجه لدخول سينما حلمي، وشراء سندويتش التن بالهريسة، ومشروب صداقة من سي علي العمامي، وتستمتع بمشاهدة فيلم الأبطال العشرة.. وتتذكر صديقك الذي كنت تتجول معه، في شوارع المدينة الوادعة الصغيرة، ويسمعك قصائده في حبيبته نزيهة..

الحطية هذا الحي المنسي مهد الطفولة والصبا، على أديمه حبوت، لم أكن في نيتي الرحيل عنه :- لكن مجبر أخاك لا بطل..

وتتذكر ليلة سفرك التي سهرت فيها مع أمك الطيبة، وكيف أدخلت على قلبها الطمأنينة، بأنك لن تغيب طويلا في بلاد النصارى، أمك التي ودعتك في الصباح وعيناها تغرورقان بالدموع، وهي تشد على يديك وتدعو لك.

وتتذكر كيف دفنت نفسك على كرسي، في وسط الحافلة المتجهة صوب الغرب، وهي تسابق الرياح على قطران الطريق،

وبعد أن قطعت مئات الكيلوات، توقف سائقها عند أول بوابة صادفته، فتح أبواب الحافلة، يصعد العسكري إلي داخلها، يحدق في الوجوه الجالسة، وانت وجل ثم يلتفت إليك متسائلا:

- أوراقك يا شاب..

تمد إليه بطاقة تعريفك يتأملها قائلا:

- أنت طالب ؟

أجبته :- نعم..

رجعها إليك ثم ترجل من الحافلة، أوصد السائق أبوابها، واصلت الحافلة سيرها من جديد نحو الغرب.. وسط لغط ركابها، رحلة استغرقت أكثر من اثنتي عشرة ساعة، وعند كل بوابة، كانت تتوقف الحافلة لدقائق..

ومع صباح اليوم التالي كنت تدفن نفسك، في الحافلة القاصدة تونس، لترتقي في اليوم الثالث سلالم الطائرة القاصدة باريس، وتهبط في مطار أورلي، بعد اجراءات التفتيش، وختم الدخول، كنت تحمل حقيبتك، تسرع نحو أول سائق تاكسي، تصادفه يتوقف عند الرصيف، كان قد تجاوز العقد الخامس من عمره، أصلع الرأس،

أنيق الهندام دفعت اليه بالحقيبة وضعها على الكرسي الخلفي التاكسي، آخر ديسمبر، الجو قارس البرودة، ورثاث الثلج يتساقط على زجاج التاكسي كالقطن، كنت تعتقد انه فرنسي حتى بادرك بالعربية قائلا:

- خوي عربي..

- نعم من ليبيا..

- من وين في ليبيا أنا أعرفها.. من طرابلس؟ من بنغازي؟.. من زوارة؟..

- لا.. من طبرق..

هتف قائلا:

- عرب طبرق باهيين برشة، أنا عملت هناك في السبعينيات، مع صياد زواري على قارب صيد، كنا نصطاد البوري والحمرايه وبوشوكه والفروج والشلبة من شواطئ طبرق..

ثم تساءل :

- من أين في طبرق ؟

- من الحطية..

- نعرفها الحطية وسوق العجاج وباب درنة والجبيله الحمرا انا واللي كنت نشتغل معاه كنا نسكنوا في جبيلة النور..

يشغل مساحات التاكسي لإزالة الثلج عن الزجاج، ثم بادرني قائلا :

- انت جاي هنا للدراسة..
- لا للبحث عن عمل..

في دهشة وذهول:

- ليبي امسيب النفط وراه، وجاي يدور شغل هنا في باريس.

بعد برهة التفت الي قائلا :- هل لديك عنوان ؟ مرسل الي أحد..

أجبته :

- لا
- سوف آخذك لواحد تونسي عنده مصنع ورق.. لعله يجد لك عملا..

البرد قارس ورذاذ الثلج يتساقط، السائق ينعطف بي من شارع الي آخر، بعد دقائق توقف بي أمام مبنى قديم، طلب مني الترجل، حملت حقيبتي جرجرت قدمي خلفه، دخل بي علي رجل مسن يرتدي نظارة سميكة، كان يجلس على مكتبه، رحب بنا جلسنا أخبره السائق بحاجتي للعمل، حدق في الرجل مليا، ثم طلب مني جواز سفري، أخرجته له بادرني قائلا:- الذي جاء بك الي هنا صديق عزيز، وأنا سوف أضعك تحت التجربة لمدة ثلاثة أشهر..

نهض السائق وقدم لي رقم هاتفه نقدته أجرته وزيادة، وعدني إنه سوف يقوم بزيارتي في الأيام القادمة..

كانت الات المصنع ساكنه لا أحد يعمل، فالساعة تقارب السابعة مساء، كأن العمل قد انتهى منذ قليل، مشى بي المدير نحو غرفة صغيرة تقابل مكتبه قائلا لي :- هذه الحجرة سوف تقيم فيها.. وأشار لي الحمام هناك..

كانت الغرفة بها سرير خشبي ودولاب وكرسي وطاولة وبعض البطاطين البالية ارتميت على السرير..

صحوت صباح اليوم التالي، وسط البرد القارس، جهزت لنفسي كوبا من الشاي، تناهى الي سمعي وصول بعض العمال، خرجت

اليهم سلمت عليهم شغلوا الات المصنع كانوا جزائريين أقبل المدير بعد لحظات وضعني أمام ماكينة تخرج الكراسات، وأمرني بوضعها داخل الكراتين..

ومضت الأيام على هذا المنوال رتيبة مملة، لم أكن أخرج إلا إلي السوق المجاور، لجلب الخبز والجبن والبيض والتن والماء، ثم أعود الي حجرتي الصغيرة، وأدثر نفسي بالبطانية وأخلد للنوم، حتى صباح اليوم التالي للعمل في المصنع، وسط ضجيج الآلات وأحاديث العمال الجزائريين، كنت أحاول أن اتأقلم مع الحياة وسط الغربة، سئمت الوحدة من أيامي الأولى.

-2-

وذات صباح سبت كان المصنع يخيم عليه الصمت والسكون، أطلت علي فتاة شقراء جميلة، شعرها الذهبي مصفوف بعناية كسنابل القمح، عيناها واسعتان كحبتي زيتون، انفها طويل شامخ بادرتني: - بونجور

أجبتها:

- بونجور

سألتني :

- أبي موجود؟

أجبتها :-

ـ اليوم سبت ونادرا ما يأتي.. تفضلي..

دخلت على استحياء مبتسمة، كانت تحملق في الغرفة المرتبة المنسقة، جلست على الكرسي الخشبي :

- أنا أراك هنا لأول مرة.
- نعم أنا العامل الجديد..
- وأنا ياسمين ابنة مدير المصنع ونسكن قريبا هنا..

جهزت لها كوبا من المشروب..

رشفت منه رشفة ثم قالت :

- حليب
- لا.. لبن..

بادرتني قائلة :

- ما اسمك ؟

- اسمي فتحي..

- هل تجولت في الحي اللاتيني مسيو فتحي..

-لا للأسف لم أبرح غرفتي، الا للسوبر ماركت القريب من هنا، لشراء احتياجاتي والعودة.

قالت وهي ترشف كوب اللبن :- ما رأيك ان نأخذ جولة في الحي اللاتيني خاصة أن اليوم أجازه..

هززت رأسي لها بالموافقة، وارتديت معطفي، أوصدت باب الغرفة، وخرجت معها، كانت رائحة عطرها نفاذة، سبحان الله هذه قد هبطت علي من السماء، لتنتشلني من وحدتي وغربتي.

كان الجو دافئا لا ثلج ولا مطر، اقتربنا من مبنى كبير هتفت قائلة:- هذه كاتدرائية نوتر دام..

بعدها اقتربنا من حديقة جميلة قالت :

- هذه الحديقة كان من عادة فناني فرنسا، إقامة معارضهم الفنية فيها في الهواء الطلق، لكن اليوم لا أحد فيها..

تركنا الحديقة، وسرنا في أزقة نظيفة ثم عبرنا الي شارع، تصطف على جانبيه مقاه ومطاعم عديدة بادرتني:

- هذه مقاهي متخصصة هذا مقهى للكتاب والأدباء، وهذا مقهى للفنانين، وهذا مقهى للرسامين وهكذا.

بعد ان تعبنا من السير قررنا الجلوس قليلا في إحدى المقاهي العادية، لاحظت العديد من التوانسة والجزائرية والمغاربة والاسيوية، يعملون هنا في هذه المقاهي.

طلبنا كوبين من العصير، اقترحت هي علي أن يكون على حسابها، التفت الي متسائلة:

- أود أن أتعرف عليك أكثر...

- انا من ليبيا ومن مدينة طبرق التي يحتضنها البحر، ولدت في حي اسمه الحطية، في وسط المدينة، من أبوين ليبيين فقيرين، لا يعرفان القراءة والكتابة، في كوخ صغير، الأب يصحو من الفجر، يتوضأ يؤدي الصلاة، يغدو إلي عمله في الميناء، والأم ترعى شؤون اخوتي الثلاثة الصغار، عندما وصلت سن الدراسة، دخلت مدرسة الحطية، تحصلت منها على الابتدائية والاعدادية، عشت

صباي في الحطية، عرفت مسالكه وأزقته وصادقت جميع صبيانه، وحفظت اسماء فتياته..

وعشت طفولة بائسة وشقية..

ثم نهضنا لنواصل جولتنا حتى وصلنا الي ميدان صغير قالت لي :

- هذا أصغر ميدان في باريس ميدان الأربعة شجيرات به متحف الفنان ديلا كروا..

كان المتحف موصدا، واصلنا سيرنا حتى اقتربنا من محطة الميترو، بادرتني قائلة:

- هذا الميدان يسمى ميدان الانتظار..

قضيت معها يوما من أجمل أيام حياتي، في نزهة داخل الحي اللاتيني.

بعد ذلك عدنا حيث ودعتني عند باب المصنع عائدة الي منزلها على أن نلتقي يوم السبت القادم..

يمر الأسبوع بطيئا حتى يأتي اليوم المنتظر للقاء ياسمين..

البارحة حلمت حلما مفزعا، عساكر مدججون بالسلاح، يطاردونني في سبخة الحطية، للإمساك بي وأنا أجري أمامهم ألهث، وما إن دخلت أول زقاق، حتى دفعت باب كوخنا أوصدته خلفي من الداخل، ودخلت غرفتي، وارتميت على سريري، ودفنت نفسي في البطانية، وأنا أسمع دوي أقدامهم الثقيلة وهم يفتشون عني..

أطلت علي فتاتي اليوم بفستانها الوردي الجميل، ورائحة عطرها الباريسي، ومعها باقة ورد حمراء أهدتها إلي، حيتني بتحية الصباح، انطلقنا عبر شوارع الحي اللاتيني، كان الجو كعادته قارسا لم يزل، اقتربنا من صرح علمي وحضاري هتفت بي :- هذه هي جامعة السربون العملاقة..

- نعم يا لها من رائعة هل نستطيع زيارتها؟..

بادرتني :

- اليوم إجازة وفي مرة لاحقة سوف نأخذ من إدارة الجامعة موافقة ونزورها..

شردت عنها بذهني بعيدا، كانت أمنيتي مواصلة دراستي الجامعية، ودخول كلية الطب، كنت متفوقا في دراستي الثانوية، بالرغم من فقري المدقع، بذلت جهدا كبيرا، حتى ظهرت، النتيجة

وتحصلت على تقدير جيد جدا، كتبت في الاستبيان والتسجيل في الجامعة رغبتي الأولى كلية الطب البشري ظهرت نتيجة القبول، بعد أيام صدمت فلم يكن اسمي من ضمن المقبولين، في كلية الطب، وجدت اسمي في قائمة الموجهين للكلية العسكرية، أمقتها حياة العسكر، ولا أرغب في دخولها اطلاقا، بادرني المسجل العام :

- هذا قدرك ولا يمكن لنا تغييرك إلي أي كلية أخرى..
- أي قدر أحمق هذا؟
- من قال لكم انني أهوى العسكر؟
- لا نستطيع أن نفعل لك شيئا هذا توجيه من رئاسة الاركان..
- لن أدخلها حتى ولو قطعتموني اربا اربا....

التفت إلي ياسمين قائلة :

- لماذا سرحت بعيدا عني؟

انتبهت لنفسي بسرعة، بادرتني:

- السربون هذه أكبر جامعة في فرنسا..

جلست وإياها في أحد المقاهي، هذه المرة كان العصير على حسابي، قالت لي:

- غدا احتفال بعيد ميلادي في شقتنا ويسعدني أن تحضره..

- نعم سوف أحضره..

سرت انا وفتاتي نحو محطة سان ميشيل ومشينا في شارع حديقة اللوكسمبرج

الحي اللاتيني شراييه تأخذك بدهشة الطرق مرصوفة هناك العديد من المقاهي والتي يمنع فيها التدخين مع الباريسيين منذ أن تحط قدميك على شوارعهم تحس بالألفة لديهم بشاشة.. يبادلونك بالتحية.. يبتسمون في وجهك برقة.. نساؤهم شقراوات رشيقات يحببن التدخين..

حضرت حفلة عيد ميلادها، توطدت علاقتي بأسرتها أكثر.. لم نلبث بضعة أشهر، معا حتى طلبتها من أبويها، واحتفلنا بزفافنا، وعشنا معا سعداء أنجبت لي طفلة جميلة شقراء، وعندما سقط النظام في بلادي، بانتفاضة فبراير2011م، عدت بها الي مدينتي، بعد أشهر من تلك الانتفاضة، وإلى حي الحطية، كما كانت غبطة أهلي بعودتي وسعادتهم، وبفتاتي وطفلتنا الجميلة، الحطية كما تركتها لم يتغير فيها شيئا، سوى رحيل الكثير من سكانها

الأصليين القدامى عنها، إلي الأحياء الأخرى، وحلول وجوه غريبة فيها وسكان جدد، وأزين الطريق الرئيسي لها بعمارات ومحلات غطت عليها، وانتشرت على السبخة البيوت الحديثة، أخذت أمي مع مرور الأيام تعلمها كيف ترتدي الرداء، وكيف ترمي الخبز في التنور، وتأخذها معها للمناسبات الاجتماعية، غير إنها بعد عدة أشهر تبدل حالها، ولم تعد تلك الشقراء المبتسمة، دخلت مرحلة الحزن والكآبة، أصبحت كئيبة منعزلة حتى فاتحتها ذات يوم ما الذي أصابها ؟

أجابت:

-أريد العودة إلي أبي وأمي في باريس، لم أعد أستطيع البقاء هنا..

- لماذا حبيبتي؟ أغضبك أحد.

- هكذا أشعر انني لا استطيع البقاء.

- هل أمي أغضبتك؟

- لا.. أمك انسانة طيبة.

- اخواتي

- اخواتك حتى هن طيبات مثل أمك لكنني لم أعد قادرة على البقاء هنا..

وبعد أيام ازداد اصرارها على العودة إلي أهلها، وساءت حالتها الصحية، حملتها إلى مطار بنينة هي وطفلتنا، ومن هناك ودعتهما إلى القاهرة، ومنها إلى باريس وعيناها تغرورقان بالدموع..

بعد حياة ملؤها البهجة والسعادة تركتني ورحلت، وأنا مثل ورقة في قلب الإعصار، كان رحيلها هي وطفلتي قاسيا علي، وذنبا لا يغتفر، تركت في قلبي غصة، كيف يمكن تصديق هذا الأمر الفظيع والفراق المؤلم المفاجئ.. الذي لم يكن في الحسبان في يوم ما؟!..